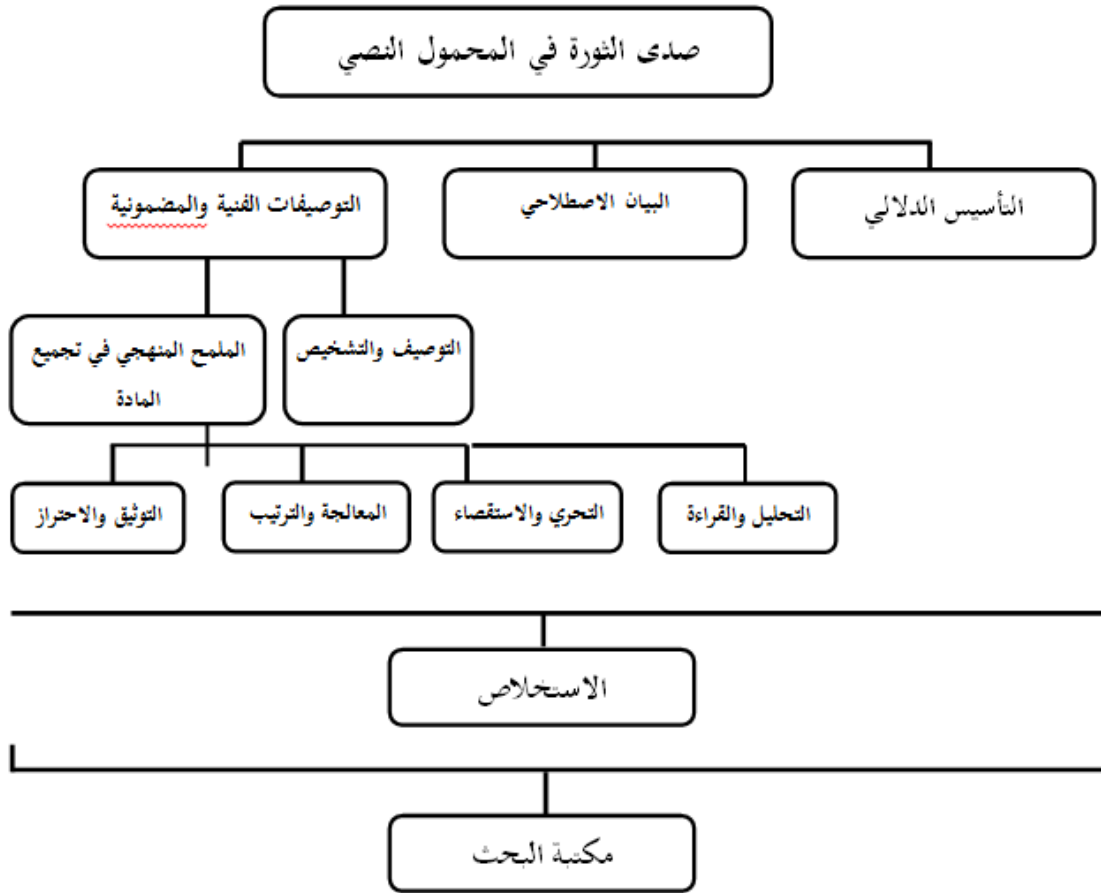


صدى الثورة في المحمول النصي :
نظرات في كتاب : "الثورة الجزائرية في الشعر العراقي" للدكتور عثمان سعدي .

إعداد الدكتور :
غانم حنجار
جامعة ابن خلدون – تيارت .

بسم الله الرحمن الرحيم.
اللهم صل وسلم على سيدنا محمد.



1. التأسيس الدلالي لمصطلح المقاومة:

للمعاني والألفاظ تعالق طبيعي، يفرضه السياق التركيبي في التداول اللغوي، ومن ثم يصير المصطلح -باعتباره لفظا مخصوصا- الحامل الدلالي، والموجه المعنوي لكل خطاب، أو نص ذلك أن الدلالة الكلية تستوفي قيمتها بوضوح اللغة، وانسجام عناصر التوالي في تراكيبها وفق خصوصية المعايير المتفق عليها في الدرس الاستعمالي للسان. وإذا كان مصطلح المقاومة (**Résistance**) منشحنا اليوم بطائل من الدلالات المتباينة، فإنما ذلك يرجع إلى تعدد الحقول التي تفرض بدورها صفة الخصوصية والحضور، ومن ثم اتسعت دائرة الاستعمال لمصطلح المقاومة، وبات حضوره قائما في الحقل الديني والسياسي

والعسكري والاقتصادي والفيزيائي...، بوصفه مسمى لمشارك من الأسماء: كالثورة والنضال، والدفاع، والجهاد، والمجاهدة وما إلى ذلك... لأن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى، أو كماله في أمر من الأمور". ولكن يبقى الأصل المعجمي هو وحده الكفيل بالفهم الابتدائي المشترك لمادة (ق و م).

فالمقاومة والقيام، والقيام، والقيام، والقوامة، والقيّم، والقيومية...، جميعها صيغ تشترك في حدث النهوض والوقوف للمهمات الطارئة. سواء أكانت ذاتية أم موضوعية.

يقول الجوهري 393هـ: "قام الرجل قياماً، وقام بأمر كذا ... وقاومه في المصارعة وغيرها، وتقاوموا في الحرب أي قام بعضهم ببعض..."¹

وعليه تصير صيغة قاوم، مقاومة تعني المشاركة في الحدث، بتفاعل طرفين على حد المفارقة، لما بينهما من المنافرة والمنازعة.

وفي الاستعمال الفلسفي يرى جميل صليبا أن المقاومة لفظ "يطلق على إحدى الكيفيات الحسية، التي تتميز بها المادة عند إدراكها باللمس أو الجهد العضلي... فالإحساس بالمقاومة له ميزة على غيره، لأنه يكشف لنا عن شيء ذي صلابة ومتانة، وكل ما يقاومنا فهو خارج عنا".²

والذي نستخلصه من الشروح المعجمية السابقة: هو أن المقاومة سلوك مغالبة يحصل بتدافع قوتين متعارضتين من أجل البقاء، ولا يكون البقاء هنا إلا للأصلح الأقوى، ولعلّ هذا سمت المعنوي يجعلنا نقرّ بالمقاومة بوصفها رديفاً لمصطلح التدافع*، الذي يراد منه دفع الضرر معنوياً كان أو مادياً، وبأيّ وسيلة مشروعة.

2. البيان الاصطلاحي للمقاومة الأدبية:

- تجليات المعنى وتحديد النشأة:

"المقاومة الأدبية أو الأدب المقاوم"- بمفهوم الانعكاس- هو كلّ محمول نصّي، يقارب الظاهرة النضالية بالآلية الفنية، لغايات حضارية مبرّرة، دفاعاً عن القيم، والمقدّرات، ضماناً لاستمرارية الوجود الطبيعي.

وحين كان فعل المقاومة واقعا بالصفة الفطرية في الكوائن الحية بات حريّاً أن تصير وقفا على الإنسان، من باب كونه ناطقا، معبراً عن أغراضه النفعية، ومن ثمّ ليس بالإمكان إشاعة التحريات عن علاقة الكلمة المبدّعة بالسلوك الإجرائي، ولا التفكير في أمر أيّهما وُجد أولاً: الكلمة أم الإنجاز؟ لأنّ المسألة أجاب عنها شعراء المقاومة قديماً وحديثاً بقدر من الحس الطبيعي المشترك، يقول نصر بن سيار**:

أرى تحت الرّماد وميض جَمْرٍ
فإنّ النارَ بالعودين تُدكى
يُوشِكُ أن يكون له ضرامٌ
وإنّ الحربَ أوّلها كلامٌ³

¹ معجم الصحاح للجوهري. دار العلم للملايين بيروت. المجلد الخامس. ط3. 1984، ص 2016-2017.

² المعجم الفلسفي. المجلد الثاني. جميل صليبا. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ط 1982. ص 407-408.

* شكل من أشكال المقاومة الطبيعية المشروعة بالمفهوم الديني. تکرّر لفظ التدافع في سورة البقرة. آية 251، والحج آية 40. ** نصر بن سيار (131-46 هـ) أموي مشهور تولى خرسان مشهود له بالحكمة وسداد الرأي، والشعر المحكم، مات في أواخر سقوط الدولة الأموية عن عمر ناهز الـ 86 سنة. كان قد بعث بمقطوعة شعرية رائعة ناصحا بني مروان. ذكرها الجاحظ في بيانه.

³ ينظر خبره بالتفصيل في كتاب: الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، ط6، 1986، ج3، ص

وفي المعنى ذاته يقول الشاعر العراقي:

يَجْعَلْنَ أَقْوَالَ الرَّجَالِ فِعَالًا⁴ إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا شُهِرَتْ فَاتِمَا

فالأكيد من الشاهد النصي أن القيمة الاعتبارية للكلمة المجردة. لأنّ "أول الفكر آخر العمل". كما يقول الإمام الإبراهيمي في بصائره، وإته " في البدء كانت المقاومة كلاماً". وكيف يتجلى أدب المقاومة في الإنجاز الفني ؟ وما هي بواعث وجوده؟ وما خصائصه وأبعاده؟

فكلّ مثير في هذه المتواليات الاستفهامية تقتضي بحثاً مستقلاً لا يتسع الحال ولا المقام للبسط فيه.

ولكن حسبنا أن نقارب الأمر ببعض الفهم الذاتي -الشخصي- فيما أراه صالحاً للعرض، والبيان.

فأدب المقاومة قديم قدم المبدع، تجلّى- في تاريخ أمتنا العربية والإسلامية- اقتضاء لحركة النفير. مستغرقاً أبعاد الزمن، مضياً ، وحالاً، واستقبالاً. وهذا هو الفارق الواضح بين المقاومة بالكلمة والمقاومة بالفعل، فمن الطبيعي أن تُقدّر للمقاومة الفعلية مواقيت زمانية ومكانية بمقتضى الحسابات الاستراتيجية، وتنتهي آجالها وإن طالّت، وتغمد السيوف عندئذ، وتستبين النتائج. لكن يبقى حظ المقاومة بالتعبير المبدع خطاباً مسترسلاً، مرافقاً وحارساً، يشتغل على بناء الحس، وإيقاظ الهمة في حال من الثبات والنباهة لا أوان له، ولا توقّف لحركته.

3. السياق الإجمالي في تجميع أدب الثورة:

تحقق ميلاد هذه الموسوعة الشعرية في سياق "دبلوماسية المقاومة" من باب الحفاظ على وهج الثورة، لا في منشئها الأصيل، ولكن في امتداداتها القومية الرحبة. من خلال المنجزات الثقافية في أشكالها التعبيرية الإبداعية التي لا غرو من أنها قيمة مضافة للتاريخ الثوري الجزائري الحديث. فإذا كانت بلاد الرافدين عاشت أصداء ثورة نوفمبر على غرار شعوب الأمة الإسلامية والحضارية، فإنّ لنخب العراق خصوصية مايزتهم* عن الكثير من المتفاعلين مع الحدث مشرقاً ومغرباً، ولعلّ الإنتاج الشعري الغزير، وبأشكاله الفنية المتعددة كان مثيراً طبيعياً، لأنّ يوحى إلى الدكتور عثمان سعدي** بالتفكير في جمع شتاته ضمن مدونة، موضوعها "ثورة الجزائر" وعلى أمد من الوقت، وبآليات أقل ما يقال عنها: إنها ذكية، وفعّالة، وواقعية. أحسن الأستاذ سعدي استثمارها لصالح الثقافة والتاريخ، فكانت النتائج مبهرة. يقول:

"لقد كان لي الشرف أن دعوت العشرات من هؤلاء الشعراء إلى الحفلة التي أقمتهما بدار السفارة الجزائرية ببغداد بمناسبة الذكرى العشرين للثورة الجزائرية، وقد لبي الدعوة ما يقارب الخمسين شاعراً ولن أنسى أبداً كيف كان يدخل دار السفارة الشاعر مصحوباً بعقيلته وحقيبته ملابسهما في يده قانلاً: "لقد حضرت للتو من محطة القطر"، لأنه من سكان الأقاليم النائية عن العاصمة -والدموع تترقرق في عينيه تأثراً بهذه الفرحة التي

⁴ ينظرك الثورة الجزائرية في الشعر العراقي: عثمان سعدي، ج1، ص 41.

جعلته يشارك في هذا الحفل، الذي يقام بمناسبة طالما تغنى بها شعرا في أثناء غليان نيران ثورة أول نوفمبر (تشرين الثاني) في مرحلتها المسلحة.⁵

4. الملمح المنهجي في بناء المدونة:

إن عملا بهذه الغزارة، والتنوع، لا يتأتى لأي باحث مالم يكن التسلح بالآليات المنهجية على قدر من الفعالية، والاكتمال. ولا سيما إذا كان الباحث يشتغل على أكثر من جهة، بسبب ما تقتضيه منه مقامات السياسة والتمثيل الدبلوماسي. لأن أمر التواصل مع الكفاءات الإبداعية صعب المنال، والأصعب منه هو طرائق استقبال النصوص، وفرزها وترتيبها، والتعليق عليها بالقدر المقبول من القراءة الفاحصة، الناقدة.

لكن استحضار المنهج، وطريقة تفعيله بات كافيا للكشف عن نكاء الباحث في الإفادة من المقام التمثيلي بدبلوماسية مرنة، منفتحة. صارت خادما أميناً للفعل الثقافي في أسمى معانيه. فكان منه أن اتكأ على النداء المباشر: متجسدا في رسالة نصية موجزة الطلب هذه صيغتها:

"يقوم السيد سعدى سفير الجمهورية الجزائرية في بغداد بعملية مع واسعة لكل الشعر الذي قيل بالقطر العراقي، في الثورة الجزائرية خلال مرحلتها المسلحة. فالمرجو من الإخوة الشعراء إرسال قصائدهم حول الثورة الجزائرية إلى العنوان التالي: السيد عثمان سعدى - السفارة الجزائرية ص.ب: 444/بغداد." ⁶

أ - التحري والاستقصاء:

تحقق في صيغة وثيقة استبianaية مقتضبة، حوت المعلومات الذاتية للشاعر، وفق النموذج الآتي:

السيد الفاضل:

تحية أخوية وبعد !

لقد تلقيت التي قلتموها في الثورة الجزائرية المسلحة، ولا تتصوروا مدى تأثيري وأنا أقرأ هذا الإنتاج الذي عبر بعمق عن تجاربكم الصادق مع الثورة الجزائرية، التي تعتبر مآثرها ملكا لا للشعب الجزائري فقط، وإنما للأمة العربية جمعاء، وانتصاراتها حصيلة لدماء عربية سالت بغزارة على جزء من الوطن العربي الكبير، وساهم في بناء صرحها كل ابن من أبناء أمتنا، وأدت الكلمة العربية في مشارق الأرض ومغاربها دورها الذي يليق بالكلمة الحرة الصادقة وتجدون طي هذه الرسالة نموذجا يضم بعض الاستفسارات، المرجو ملؤه وإرساله لي لأنني عازم على إعداد موسوعة بعنوان (ديوان شعراء الثورة الجزائرية بالعراق).

* يقول البشير الإبراهيمي ناقلا مشاعر الإخوة العراقيين أيام البلاء الاستعماري، " ...عربون أخوة صادقة بين بغداد وبين الشمال الإفريقي، أحد موان العروبة التي يريد الاستعمار أن يفصل بعضها عن بعض." آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ط 81، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 67.

** لم نركز على الترجمة للدكتور عثمان سعدى، لأن الرجل لا يزال حيا يرزق، وحضوره في الإعلام والثقافة لازال قويا، ومن ثم فيكفي أنه جامع للحس الثوري الثقافي، وصاحب مكانة سياسية ودبلوماسية سخرها في خدمة البعد القومي الحضاري للأمة. أطل الله أنفاسه.

⁵ الثورة الجزائرية في الشعر العراقي: عثمان سعدى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1. الجزائر، ص 07.

⁶ الثورة الجزائرية في الشعر العراقي: عثمان سعدى، ص 475.

وتفضلوه بقبول فائق تقديرِي واحترامي." عثمان سعدي: سفير الجزائر في بغداد
ص.ب/444/ بغداد. 7

فعقب هذا الإعلان حدثت الاستجابة الطوعية التي يبدو أنها قد أبهرت الأستاذ سعدي كما تبين القرائن المادية، فما كان يتوقع هذا الكم من المأثورات الأدبية الشعرية والنثرية، تصبّ على سفارة الجزائر بالعراق، بوتيرة سريعة، وفي زمن قصير، شكّل عنده ما يشبه أرشيفا وثائقيا في موضوع المقاومة الجزائرية. ولعلّ هذا من حظوة الشعر العراقي المقاوم الذي تيسر له الجمع والدراسة على يد سفير الثقافة، قبل أن يكون سفير السياسة.

ب - المعالجة والترتيب:

لا نشك في أن عملية فرز النصوص بالقراءة الناقدة، وترتيبها، ومساءلة مغاليقها دلاليا وسياقيا وحتى تأويليا كلّفت الأديب جهدا، ووقتا بل شكّلت أمامه عقبة كأداء على مستوى الاختيار فما الذي يقبله، وما الذي يلغيه؟ وما هي معايير ذلك القبول أو الرفض؟ وكيف يتعامل مع الظاهرة الشعرية في تنوعها الفني والمدرسي؟

تُرى إلى أيّ الأصناف يميل؟ وما هو الأولي بالتقديم...؟ كل هذه الفرضيات التي نحسّها فهي ضغوط يعيشها الأستاذ الباحث، لأن في منتهى الأمر المسؤولية صعبة، والمهمّة مكلفة، ولكن أظنّ حدسا أن الأستاذ سعدي استطاع تجاوز المرحلة لإدراكه أنّ موسوعته تروم الجمع، والنقل حفاظا على الموروث الثوري العراقي في شأن الجزائر، وليس من مقاصد الأستاذ أن يخضع تلك الأعمال إلى النقد الصريح، ولا الدراسة الحاسمة، ومن ثم يكون قد تساهل مع المعطى الأدبي كمّا ونوعا، فكان يقبل بالقليل إلى جانب الكثير، ويدرج الأديب اللامع إلى جانب الناشئ، خدمة لأدب الثورة وللقيم القومية، التي باتت من علامات المرحلة في السياسة العامة للأمة العربية.

ج- التوثيق والاحتراز:

مما يقتضيه المنهج العلمي في السياقات البحثية، ولا سيما في علم الرواية، هو التعامل مع الظواهر النصية في طرق الإثبات. فهي كفيّلة بأن تشكّل دليلا مقنعا، وتعصم الجامع - الباحث - من فقدان المعلم.

ولأجل هذه القيمة العلمية قالوا قديما: "من فارق الدليل ضلّ سواء السبيل" 8. ومن ثم كانت مسألة التنبّث عند عثمان سعدي حاصلة بالمكاتبة على وجه التراسل الصريح، أو عن طريق الاستبيان الموجّه المخصوص مع الملاحظة أنّ جلّ ما في المجاميع الشعرية المرصودة، أنّها حائزة على علامات إشارية دالّة، وقلّما يصادف القارئ نصّا عديم النسب، أو غريب المقام. وهذه صيانة مجانيّة لحقّ المؤلف الأصيل، كفلها الباحث له في هذا المشروع الرّاقِي.

د- العرض والقراءة:

حظيت الموسوعة بتهيئة للسياق العام، افتتحت بإهداء ثوري خصّ به الباحث شقيقه الشهيد- سليمان- بكلمة ثورية مؤثرة لخصت سيرة البطل. تلا ذلك مقدمة من صفحة وربع الصفحة، أثار فيها الأستاذ سعدي مسوّغات العمل على إخراج الموسوعة، شارحا الخطوات الإجرائية، التي فرضتها ملابسات الدراسة. وحسب الدكتور عثمان من صنيعه الأكاديمي أن

7 الثورة الجزائرية في الشعر العراقي: عثمان سعدي، ص 476.

8 تنسب لابن القيم الجوزية في كتاب مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

حظيت الموسوعة بعناية معرفية ومنهجية طالبت الأبعاد الشكلية والمضمونية، إذ رُتبت مباحثها بعد مقدمة وجيزة، وتمهيد طال الحديث عن الثورة الجزائرية. وإن لم يتعرض الدكتور عثمان في عتبات الموسوعة إلى تفاصيل المعاني، وحقائق الأفكار، بقدر ما أشار في إيحاء وخفّة من دون إخلال بمقاصد تلك العتبات، التي كانت مقنعة، لأنّ غايته كانت مقصورة على المعالجة النصية لأنماط الشعر المعروف من حيث تصنيف قصائده إلى موضوعات، ومن ثمّ تشكيل كلماته، وشرح معجمها، والتعليق على ما يقتضيه المنهج التحليلي. وبذلك تكون المباحث قد انتظمت في الجزء الأول من الموسوعة، ضمن أحد عشر عنواناً يمثل جميعها محتوى أدبياً متكاملًا، ومنسجمًا مع فارق في تعداد الصفحات بينها.

والمفيد في تلك المقاطع الدراسية هو التناول النقدي الصريح واللغة الواصفة، والمقولات الموظّفة التي انطوى عليها مضمون التمهيد. لأنها باختصار أراها بيانًا تبريريًا، من شأنه إقناع القارئ بظاهرة التنوع الفني الشعري وتشكّلاته المدرسية في الموسوعة، ولاسيما أولئك الذين لم يعد إمامهم بالحركة الشعرية الحديثة والمعاصرة كافيًا.

وبهذا يكون الدكتور عثمان قد أضفى على الموسوعة معطيات قرائية فسّرت حيثيات الظاهرة الشعرية العراقية في أدب المقاومة، الذي كانت نواته حصرًا "ثورة الجزائر"، فاسحا المجال إثر ذلك لعرض النماذج بطريقة تراتبية على القارئ العربي عامة، والجزائري خاصة. ممّا يوحي بكون الموسوعة لا تزال مجالًا بكرًا، صالحًا للنظر والاستخلاص في إطار الدراسات النقدية المعاصرة والحدائث الواعدة.

وفي النهاية نلاحظ اكتمال مسار البحث من دون خاتمة تذكر، كما عوّدتنا التقاليد الأكاديمية وإن كان الدكتور عثمان قد ضمّن عمله نتائج مسبقة توزعت في ثنايا المباحث. مستعيضا عنها بملاحق ضمّت طائلا من الرسائل الموثقة لشعراء العراق، وأدبائه، وفهارس تفصيلية، فكان عماد كلّ هذا المنجز الثري مكتبة علمية اتسعت للفن الشعري، بمراجع دراسية ومجلات متخصصة، وجرائد مشهورة. مشكلة في المجموع حصيلة عددية بلغت ثمانية وسبعين عنواناً "78" بين مطبوع ومخطوط، فضلا عن الرسائل الشخصية، واللقاءات المباشرة، والتواصلات العامة كلّها في ظني رسمت ملامح المرجعية الدراسية للموسوعة، ومنحتها جواز الاعتماد بدون موارد. في تعداد من الصفحات ناهز الألف -1000- ضمن جزأين كبيرين، من طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب، من عام 1983. بالجزائر.

5. الخلاصة:

يقودنا مسار هذه الدراسة التوصيفية إلى تقييد الأحكام الآتي تشخيصها:

- 1- إن مجمل النصوص الشعرية في المدونة تتوافر على حوامل معرفية، وفنية في حقل المقاومة الأدبية. تجعل منها ذخيرة صالحة للمساءلة القرائية.
- 2- تعدّ الموسوعة حصيلة تجميعيّة تقرّرت بالاستقراء التام، وبواسطة "الدبلوماسية الأدبية".

3- سيظل المتن الشعري العراقي في الثورة الجزائرية رتقا، لا يمكن فتح معانيه إلا بالدراسات الأكاديمية الجادة، وفي مستوى البناء النصي: لغة ومنهج وفكر.

- 4- أفرزت المحصّلة الشعرية في المدونة على قيم عددية لها ما بعدها من الاعتبار الدلالي، هذا بيانها:

القوائد المثبتة: 255: منها 177 خيلية، و62 حرّة، و 01 نثرية و07 موشّحات و03 ملاحم 01 حرّة. الشعراء المحصون: 107.

5- مهّد هذا الجهد المشهود - لاحقاً- السبيل، أمام الدكتور عثمان لتجميع الشعر السوري في الثورة الجزائرية، على غرار ما تأتّى له في بيئة العراق. وهو لا يزال مخطوطاً بحسب الباحث.

هذه المقاربة لا تنطق بفصل الخطاب في شأن الموسوعة، وصاحبها، فحسبنا الاجتهاد في بعض القضايا، وما غاب عنّا ليس بعزيز أن يتأتّى للكثير من غيرنا. فدقّة الإصابة مرهونة بصفاء القصد أبداً.

والله الهادي إلى مرادات الخير، أوّلاً، وأخيراً.

الدكتور غانم حنّجار. جامعة ابن خلدون. تيارت.

28 رجب 1438هـ. الموافق ل: 20 أفريل 2017م.

مكتبة البحث:

القرآن الكريم برواية ورش.

1- الثورة الجزائرية في الشعر العراقي: عثمان سعدي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط1، الجزائر.

2- معجم الصحاح للجوهري: دار العلم للملايين بيروت، المجلد الخامس، ط3، 1984.

3- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، ط6، 1986.

4- المعجم الفلسفي: المجلد الثاني، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1982.

5- الشبكة. مواقع مختلفة.